الصراع الإسلامي البيزنطي الأول في البحر المتوسط
من النصف الأول من القرن السابع وحتى منتصف القرن الثامن الميلادي
الجزء الثاني: (دراسة في وسائل المسلمين الهجومية لمحاولات غزو القسطنطينية)

د. مراد خليفة المختار كورة
أستاذ مساعد بقسم التاريخ/ كلية الآداب . جامعة الجفرة
Korah73@yahoo.com

الملخص:-

تتناول هذه الدراسة الأسباب المباشرة التي دعت المسلمين إلى التغيير في سياستهم الحربية من الدفاع إلى الهجوم، ونقل الصراع مع البيزنطيين إلى داخل أراضي دولتهم، عن الطريق استهداف العاصمة القسطنطينية بشن غزوات متتالية بغية السيطرة عليها أو حصارها باعتبارها القاعدة الرئيسية التي تخرج منها القوات لشن هجمات على سواحل مصر وبلاد الشام، كذلك يتطرق إلى التغييرات التي أحدثها البيزنطيون في هيكلية سياستهم البحرية وتنظيماتها أو ما يعرف بالثيمات أو البنود البحرية لمواجهة الخطر الإسلامي الذي يهدد دولتهم.

Summary:-

This study deals with the direct reasons that prompted Muslims to change their war policy from defense to attack, and transferring the conflict with the Byzantines to the territories of their state, by targeting the capital, Constantinople, and launching sequential invasions in order to control or besiege it, as it is the main base from which forces depart to launch attacks on the coasts of Egypt and the Levant. It also deals with the changes brought about by the Byzantines in the structure of their marine policy and its organizations, or what is known as marine themes or items, to confront the Islamic threat that threatens their state.

المقدمة:-

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة ونوراً للعالمين، وعلى آله وصحبه وأتباعه الذين رفعوا راية الإسلام في البر والبحر. وبعد.

هذا البحث هو استكمال لما تم دراسته في الجزء الأول، والذي كان عنوانه:(دراسة في وسائل المسلمين الدفاعية البرية والبحرية عن السواحل الشامية والمصرية)؛ والذي تم التركيز فيه على الجوانب الدفاعية، بينما سوف يركز هذا الجزء على الوسائل الهجومية، ولذلك جاء عنوانه: **(دراسة في وسائل المسلمين الهجومية لمحاولات غزو القسطنطينية)**- وقد تم الإشارة في الجزء الأول إلى الأسباب التي دعت لتقسم الدراسة إلى جزأين- والذي تكمن أهمية دراسته في أنه يتيح الاطلاع على الأسباب التي دعت المسلمون إلى انتهاج سياسة هجومية، وعدم الاكتفاء بالوسائل والأساليب الدفاعية لصد الهجمات البيزنطية على السواحل الشامية والمصرية، ونقل الصراع إلى قاعدة البيزنطيين القسطنطينية، وتمكن أهميته أيضاً في أنه يوجه أنظار الدراسين والباحثين للاهتمام بدراسة مثل هذه المواضيع دراسات معمقة خلال مراحل التاريخ الإسلامي المختلفة للاستفادة منها اليوم في مواجهة المخاطر التي تتعرض لها الدول الإسلامية في زمننا الحاضر، ومن هنا كانت أهمية تلك الفترة في الإطار الزمني الذي جاء تحديده تأتي في مقدمة الأسباب التي دفعت الباحث لدراسة هذا الموضوع؛ والذي تكمن أشكلية دراسته في:

- إلى أي مدى نجحت هذه الوسائل والأساليب الهجومية في الدفاع عن المدن الساحلية في الشام ومصر، والحد من هجمات وغارات الدولة البيزنطية.
- هل نجحت غزوات الأسطول الإسلامي في إطباق الخناق على القسطنطينية، وظروف كل غزوة ونتائجها على موقف القوتين وعلى مسار الصراع.
- وأخيراً كيف كان رد الفعل البيزنطي من هذا الاحتكاك المباشر مع المسلمين.

وتأسيساً على ما سبق سوف يتم تقسيم البحث إلى محورين:

الأول: محاولات المسلمين غزو القسطنطينية للحد من هجمات البيزنطيين على سواحل الشامية والمصرية.
الثاني: نظام البنود البحرية (الثيمات) ودوره في صد هجمات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية.

ولدراسة هذا البحث سوف يتم التركيز على المنهج التاريخي، القائم على تتبع الأحداث وتحليلها، مع التركيز بشكل كبير على الروايات العربية والأجنبية وطريقة تناولها للأحداث، والله من وراء القصد.

المحور الأول: محاولة المسلمين غزو القسطنطينية للحد من هجمات البيزنطيين على سواحل الشامية والمصرية.

- محاولة غزو القسطنطينية (49هـ/669م)

تمت الإشارة في الجزء الأول من الصراع بين المسلمين والبيزنطيين بأن المسلمين أدركوا تمام الإدراك أن ما قاموا به من وسائل وأساليب دفاعية عن سواحل بلاد الشام ومصر قد نجحت في الحد من هجمات الأسطول البيزنطي، إلا أنها لم تتمكن من وضع حد نهائي لها، لذلك بدأوا التفكير في تغيير السياسة الدفاعية إلى الهجومية بنقل ميدان الصراع إلى داخل الحدود البيزنطية عن طريق القيام بغزو القسطنطينية من البحر، مع الاستمرار في استئناف الغزوات البرية، بهدف حرمان البيزنطيين من أية قاعدة لهم يمكن أن يستعملوها ضد السواحل الإسلامية، أو تسهل تحركات أسطولهم عند إغارته عليها.

غير أنه من الصعب معرفة متى تم عقد العزم على استهداف القسطنطينية على وجه التحديد، فهناك اتجاه لربط عزم المسلمين على استهداف القسطنطينية برغبة نمت مبكراً عند معاوية منذ ولايته للشام، ثم جاء عزمه على بدء خطواتها التنفيذية بمجرد وصوله إلى الخلافة[1]، بينما هناك من يرى أن هذه الرغبة كانت في ذهنه منذ بداية الغزو في البحر، وما محاولة السيطرة على جزر الحوض الشرقي للبحر المتوسط إلا خطوات في هذا الطريق المؤدى إلى القسطنطينية[2]، ولعل أول ذكر في المصادر العربية لبلوغ القسطنطينية في أوائل عهد معاوية بالخلافة، وموقف المؤرخين من الرواية التي جاءت به ما يفيد استبعاد الإقدام على هذه الخطوة الكبيرة في هذا الوقت دون استعدادات أو حتى مقدمات، ففي أحداث عام 43هـ/663م جاءت رواية عند الطبري تقول ((فمن ذلك غزوة بُسر بن أبى أرطأة

(1) Tsangadas, B. The Fortifications and Defense of Constantinople, New York,1980. P.261. note. 4.
(2) Ostrogorsky, G., The Byzantine Empire in the world of the seventh century", Dumbarton Oaks papers, vol. 13, 1959. pp. 104-111.

الروم ومشتاه بأرضهم حتى بلغوا القسطنطينية – فيما زعم الواقدي – وقد أنكر ذلك قوم من أهل الأخبار فقالوا لم يكن لبُسر بأرض الروم مشتى قط))[3].

أما مؤرخو الجانب البيزنطي وفي مقدمتهم ثيوفانيس– الذي دأب على الإشارة إلى استعداد معاوية لغزو القسطنطينية منذ كان والياً فلم ينسب إليه إيفاد حملة لها هذا القصد في هذه السنوات المبكرة من خلافته، وعندما ذكر غزوه بُسر هذه التي وضعها في أحداث عامي 665–666م/45–46هـ أشار إلى أنه قام بمهاجمة أراضي الروم أو كما أسماها Romania وخرب منها أنحاء هيكسابوليس [من أعمال ملطية على حدود أرمينية] ثم شتا بها فضاله [4]، ولم يذكر تقدم أي منهما ليبلغ القسطنطينية.

على أنه يمكن القول أن إصرار البيزنطيين على معاودة الهجوم على السواحل الإسلامية عام49هـ/669م قد عجل بإمكان القيام بهذه الخطوة، ففي العام ذاته سجلت المصادر العربية بلوغ جيش إسلامي القسطنطينية وذلك ضمن غزوة في أراضي الإمبراطورية البيزنطية أو ما يعرف بأرض الروم، فقد ذكر الطبري ((في هذا العام كانت غزوة يزيد بن معاوية الروم حتى بلغ قسطنطينية ومعه ابن عباس وابن عمرو وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري، وفيها أيضاً كان مشتى مالك بن هبيرة السكوني بأرض الروم، وفيها كانت غزوة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر فشتا بأهل الشام))، وفي سنة خمسين ((كانت غزوه بسر بن أرطأة وسفيان بن عوف أرض الروم وقيل كانت فيها غزوة فضالة بن عبيد الأنصاري البحر))[5]، وجاءت رواية اليعقوبي لتلقى الضوء على ظروف خروج جيش يزيد فقال ((في أيام معاوية أغزى يزيد ابنه الصائفة ومعه سفيان بن عوف فسبقه سفيان بالدخول إلى بلاد الروم فنال المسلمين في بلاد الروم حمى وجدري ... وأردف معاوية يزيد ذلك الجيش فغزا حتى بلغ القسطنطينية))[6] وإن لم يحدد لها تاريخاً.

(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ط3، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987، ج3، ص178.
(4) Theophanes, The Chronicle of Theophanes, trans. by Harry Turtledove, Philadelphia, 1982. p. 45, p48.
(5) الطبري: المصدر السابق، ج3، ص216، 217.
(6) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، النجف، 1358هـ، ج2، ص204.

وجاءت عند ابن الأثير الرواية نفسها، لكنه أضاف أنه ((لما أصاب الناس المرض ولاقوا ما لاقوه ... سار يزيد ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه، فأوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا القسطنطينية، فاقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام واشتدت الحرب بينهم ... ثم رجع يزيد والجيش إلى الشام))[7].

هكذا ترى الرواية العربية وصول حملة يزيد هذه القسطنطينية، وإن لم توضح أي طريق سلكته، وكيف بلغ القسطنطينية ؟ وكيف عاد الجيش منها إلى الشام ؟.

أما الرواية البيزنطية فلها بشأن هذه الحملة ذكر مغاير جاء فيه ترتيب الأحداث على نحو آخر، فقد ذكر ثيوفانيس وصول يزيد على رأس قوة كبيرة إمداداً لجيش فضالة الذي كان قد وصل إلى هيكسابوليس لمساعدة زعيم الأرمن الثائر سابور، ولكنه وجده قد قتل، قال: ((تقدم الرجلان معاً نحو خلقدونيا وأخذا كثيراً من الأسرى واستولوا على عموريه تاركين بها حامية من خمسمائة رجل وعادوا إلى سوريا، لكن الإمبراطور أرسل القائد أندرياس الذي وصل إلى عموريه ليلاً ودخلها وقتل رجال الحامية العربية جميعاً ولم يبق أحداً منهم حياً))[8].

وبناء على هذه الإشارة وصف أحد المحدثين انضمام جيش يزيد إلى الجيش الرابض في خلقدونيا بالحملة الاستطلاعية هدفها اختبار دفاعات المنطقة حول العاصمة[9]، ووصفها آخر أيضاً بأنها حملة استطلاعية أسهمت في فرض السيطرة على الضواحي الأسيوية للقسطنطينية بالسيطرة على خلقدونيا[10]، في حين أضاف رأى ثالث إلى ما جاء به الآخرون أنه بعد انضمام يزيد إلى فضالة في خلقدونيا، عبر المسلمون مياه المضيق إلى الشاطئ الأوروبي ووقفوا أمام أسوار القسطنطينية يحاصرونها، وخلص إلى أن هذا الحصار امتاز بصبر المسلمين وجلدهم في التضييق على سكان العاصمة حتى تم رفعه في صيف عام 669م/49هـ[11].

(7) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، دار بيروت 1965م، ج3، ص459.
(8) Theophanes, *op .cit*. p. 50.
(9) Lewis, A., Naval Power and Trade in the Mediterranean A. D. 500-1100, Princeton, 195. p. 60..
(10) Tsangadas, *op .cit*. p. 117.
(11) إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون– البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية–، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1953، ص ص156–157.

ولكن يجب أن نشير هنا إلى أن المصادر العربية لم تذكر بالتحديد أين كان موقع القتال، أما المصادر البيزنطية فقد قصرت ما قاموا به من عمليات على خلقدونيا فقط.

- **محاولة غزو القسطنطينية (54-58هـ/674-678م)**

استمرت المصادر العربية في ذكر توالى الغزوات برية وبحرية على أراضي الإمبراطورية البيزنطية، وإن إحدى الحملات البحرية استطاعت الاستيلاء على جزيرة قريبة من القسطنطينية ففي أحداث عام 54هـ ذكر الطبري ((فيها فتح جنادة بن أبى أميه جزيرة في البحر قريبة من قسطنطينية يقال لها أرواد*))[12]، وأورد ابن الأثير والبلاذري الرواية نفسها[13].

ثم تابعت المصادر البيزنطية محاولات المسلمين للوثوب على القسطنطينية، فأورد ثيوفانيس في أحداث عام 672-673م/92-93هـ أنباء عن تجهيز حمله كبرى بدأت أولى تحركاتها بتوزيع القوات في أكثر من موقع على الشاطئ الغربي لأسيا الصغرى ذاكراً ((أن هذه الحملة الكبرى أبحرت وقضت الشتاء في كيليكيا حيث كان محمد بن عبد الله في سميرنه، وقيس في كيليكيا وليكيا، كما أوفد معاوية أيضا الأمير خالد بحمله أخرى لدعمهم))[14].

وتعليقاً على هذه الرواية نجد أن هؤلاء القادة جميعاً ترددت أسماؤهم في المصادر العربية في أحداث الغزو في أراضي الإمبراطورية البيزنطية بدءاً من عام 52هـ/672م، فمحمد بن عبد الله الذي أورد ثيوفانيس أنه وصل سميرنه جاء ذكره عند الطبري الذي لقبه بالثقفي وقال أنه هو ((من غزا الصائفة في هذه السنة))[15]، أما قيس فهو عبد الله بن قيس الذي شتا بأرض الروم سنة 55هـ/675م[16]، أما خالد فهو خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي جاء

---

* أرواد بناء على هذا التعريف ما هي إلا شبه الجزيرة البارزة من الشاطئ الآسيوي والداخلة في بحر مرمره والتي جاء ذكرها في المصادر البيزنطية باسم قزيقوس Cyzicus وجعلت فضالة* يقضى بها الشتاء عام 670-671م. راجع

Theophanes, *op .cit.* p. 51.

(12) الطبري: المصدر السابق، ج3، ص241.

(13) ابن الأثير: المصدر السابق، ج3، ص497، البلاذري: فتوح البلدان، ط1، شرح وتعليق عبد الأمير مهنا، دار اقرأ، بيروت، 1992، ص338.

(14) Theophanes, *op .cit.* p. 52.

(15) الطبري: المصدر السابق، ج3، ص237.

(16) نفسه، ص245.

ذكره عند الطبري في أحداث عام 48هـ/668م حين قال: ((فيها غزوة مالك بن هبيرة السكوني في البحر، وغزوة عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر البحر وبأهل المدينة وعلى أهل المدينة المنذر بن الزهير وعلى جميعهم خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد))[17].

والسبب في الاختلاف الواقع فيما يتعلق بتحديد سنة الغزوة – بين الروايتين العربية والبيزنطية هو أن الرواية العربية لم تذكر أنهم اجتمعوا في حملة واحدة وإنما ذكرتهم ضمن توالى الغزوات السنوية في أراضي الإمبراطورية البيزنطية بينما ذكرت المصادر البيزنطية اجتماعهم بهدف الاستعداد لحملة كبرى استهدفت القسطنطينية، هذا ولم تزودنا هذه المصادر بمعلومات عن حجم القوة التي تضمنتها الحملة سواء القوة البحرية أو القوة البرية المصاحبة لها، واكتفت بوصفها بأنها حملة كبيرة[18].

وقبل أن تتابع الروايات البيزنطية – والتي كانت أكثرها تفصيلاً رواية ثيوفانيس– مراحل تلك المحاولة لغزو القسطنطينية، ذكرت ((أنه عندما وصلت أنباء تحركات القوات الإسلامية نحو القسطنطينية إلى الإمبراطور قسطنطين الرابع (668–685م) قام بإعداد سفن حربية كبيرة ذات صفين من المجاديف وتم تزويدها بقاذفات اللهب بالإضافة إلى دروموناتٍ مزودة بسيفونات، وأمر بأن ترسو في ميناء قيصاريون)) [19]، من هذه الإشارة يتضح أن الطرفين قد استعدا للمواجهة وأن هذه المواجهة كانت بمثابة اختبار حقيقي لقدرات الطرفين، حيث قامت القوات الإسلامية بتنفيذ أولى مراحل تلك المحاولة في 673–674م حسبما ذكر ثيوفانيس ((أن الحملة رست عند حدود تراقيا من مرتفعات هبدومون المعروفة بمجناورا غرباً حتى رأس كيكلوبيون شرقاً، أما الاشتباكات فكانت تدور طيلة اليوم من الفجر وحتى الغروب على امتداد المنطقة من الحصون الخارجية لباب الذهب وحتى كيكلوبيون، وكان الطرفان ما بين اندفاع وصد، وظلت الاشتباكات بينهما مستمرة من شهر إبريل وحتى شهر سبتمبر، ثم عاد المسلمون إلى قزيقوس، التي اتخذوها قاعدة لهم

(17) نفسه، ص205.

(18) Theophanes, *op .cit.*, p. 52.
(19) Ibid.

يشتون بها وبعدها عادوا في الربيع لملاقاة البيزنطيين في معركة بحرية. وظلوا يكررون العمليات نفسها لمدة سبع سنوات))[20].

وقد أظهرت هذه المرحلة من الحملة الدور الذي لعبته البحرية الإسلامية حتى وصلت هذه القوات إلى أسوار العاصمة، كما اتضح كيف قام الأسطول بالدور الرئيسي في أحداثها.

فالخطوة الأولى وهى السيطرة على الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى، ونشر القوات في أكثر من موقع منه إلى أن تم تجميع هذه القوات لتعبر مضيق الدردنيل في اتجاه العاصمة، كانت من جهود البحرية الإسلامية، التي أسهمت بعد السيطرة على جزيرة قوس ثم جزيرة رودس وأكملتها بجزيرة خيوس[21]، في تأمين الطريق وفتحه أمام الأسطول الإسلامي، وقد أشارت المصادر العربية إلى ما أسفر عنه الوجود الإسلامي في هذه المواقع من إعاقة لحركة الأسطول البيزنطي، فعلى سبيل المثال عندما جاء الحديث عن فتح رودس قيل ((وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر فيقطعون سفنهم، ... وكان العدو قد خافهم))[22].

ولتنفيذ العمليات حول العاصمة قام الأسطول بإنجاز هذه المهمة منذ السيطرة على قزيقوس، واتخاذها قاعدة؛ فهي شبه جزيرة يمكن الدفاع عنها بسهولة[23]، كما أنها تجاور بعض القرى القريبة من الشاطئ التي تتوافر بها المراعي والأراضي الخصبة بالإضافة إلى وجود ميناءين طبيعيين بها تحميهما حواجز أمواج[24]، أما قاعدة العمليات المتقدمة التي ذكرها ثيوفانيس وهى هبدومون؛ فهي ميناء توفرت له حماية طبيعية جعلته مناسباً لرسو الأسطول، بالإضافة إلى سهولة إمداده بالمياه والمؤن[25].

وهنا يبرز سؤال لماذا لم يقدم البيزنطيون على مهاجمة المسلمين في قزيقوس؟، ربما يرجع أيضاً بالإضافة إلى رغبتهم في تركيز قواتهم لحماية العاصمة إلا أنهم كانوا مضطرين لمراقبة مداخل القسطنطينية من جهة آسيا وكذلك

(20) Ibid.
(21) Ibid.
(22) الطبري: المصدر السابق، ج3، ص238 ؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج3، ص493.
(23) Treadgold, W., A History of the Byzantine state & society, California, 1997. p. 325.
(24) Tsangadas, *op .cit*. p. 266 note. 24.
(25) Ibid. p 265, note. 20.

من ناحية البسفور، لم يتح هذا كله لهم الفرصة لمهاجمة هذه القاعدة، وربما وجدوا من الأجدى محاولة الإعداد لمهاجمة الجيش في آسيا الصغرى مصدر إمداد هذه القاعدة، وفي هذا السياق يمكن القول بأن هذه الأخطاء من جانب البيزنطيين هي التي أسهمت في إطالة أمد العمليات وتكرارها، ومن جهة أخرى كان فصل الشتاء في صالح البيزنطيين لتدبير الإمدادات للمدينة ونقل القوات وعمل الإصلاحات اللازمة للتحصينات، وعلى هذا كانت فترة الشتاء تجهض الجهود التي يبذلها المسلمون لإنهاك المدافعين في محاولة للنيل من دفاعات المدينة طيلة فصلى الربيع والصيف، أي أن تكرار مغادرة الأسطول الإسلامي للمياه حول العاصمة في فصل الشتاء جعل كل ما كان يقوم به المسلمون من مجهودات لإسقاط المدينة تذهب هباءً[26]، ويعزوه البعض إلى عدم توفر الخبرة الكافية لدى المسلمين في مهاجمة المدن الكبرى وكذلك التعامل مع تحصينات بهذا الاكتمال[27]، فـ ((أصابهم الخزي وخسروا كثيراً من مقاتليهم فانسحبوا خاسئين مثخنين بالجراح والأذى الكبير الذي لحق بهم. وفي رحلة العودة صدمت سفنهم عاصفة شتوية عاتية بالقرب من سيلايون حطمتها أشلاء ودمرتها تماماً. وعندما التقى قائد آخر هو سفيان بن عوف بقوة بيزنطية يقودها كل من فلوروس وبتروناس وكبريانوس قتل في المعركة ثلاثون ألفاً من العرب))[28]، ومما صعب من موقف المسلمين ما قام به مهندس يدعى كالينيكوس من هليوبوليس بابتكار نار بحرية أحرقت سفن المسلمين بمن فيها. وهكذا عاد البيزنطيون بالنصر بفضل هذا الاكتشاف[29].

كانت تلك إذن محاولة جادة من جانب المسلمين لغزو عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، قاموا بها وفق خطة تتم على مراحل هيأتها نجاح جهودهم البحرية منذ إنشاء الأسطول، وهو ما عبرت عنه المصادر البيزنطية فقد اعتبرتها بالفعل محاولة جادة لغزو العاصمة، غير أنه من الملاحظ أن هذه المصادر لم تطلق عليها صفة حصار وهى الصفة التي جاءت في تعليقات المحدثين[30].

(26) Ibid. p. 119.
(27) Ibid.
(28)Theophanes, *op .cit*. p. 52 .
(29) Ibid. pp. 52 – 53.
(30) Ostrogorsky, *op .cit*. p. 111.

أما عن نتائج هذه المحاولة فقد تجسدت في استعادة ما فقده البيزنطيون من نقاط استراتيجية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وكان فقدانها قد تسبب في انحسار السيطرة البحرية البيزنطية على هذا الحوض طيلة فترة الحملة، فقزيقوس أو أرواد قيل عنها ((جاء نعى معاوية وكتاب يزيد بالقفول فقفلنا فلم تعمر بعد ذلك وخربت، وأمن الروم))[31]، كذلك كان مصير رودس قيل ((لما مات معاوية أقفلهم يزيد بن معاوية))[32]، ومَنْ كان من المسلمين بقبرص تعرضوا للمصير نفسه، بعد أن أجبر الخليفة يزيد بن معاوية (60-64هـ/680-683م) على إجلائهم بعد أن استوطنوا بها ثلاثين عاماً[33]، ليدلل على أن البحر عاد بيزنطياً مرة أخرى، غير أنه جاء بشأن قبرص في المصادر ثلاث روايات أوردها البلاذري أيدت اثنتان منها إقفال المسلمين عنها في عهد يزيد[34]، ولكن الثالثة أقرت بأن أهل قبرص ظلوا على صلح معاوية حتى ولى عبد الملك بن مروان (65-86هـ/685-705)[35].

لم يكن فشل تلك المحاولة كافياً لإنهاء حالة الحرب القائمة بين الطرفين، حتى المعاهدة التي تمت بين الطرفين عام 677-678م والتي أظهرت المصادر البيزنطية حرص المسلمين على تجديدها من خلال ما تعهدوا بتنفيذه من شروط[36]، أدت سياسة الإمبراطور جستنيان الثاني (685-695م) وما اتخذه من إجراءات في كل من أرمينيا وقبرص وأيبريا إلى إظهار عدم حرص الطرفين على الاستمرار في الالتزام بها[37].

في حين حقق المسلمون في أثناء تلك الفترة من خلال عملياتهم في آسيا الصغرى- التي كانوا يدفعون إليها بقواتهم براً وبحراً-[38] ما أثار قلق الإمبراطور الجديد ارتيميوس الذي تلقب بانستاسيوس (713-715م) فسجلت رواية ثيوفانيس لعام 714-715م كيف استشف الإمبراطور عن طريق رسله إلى الخليفة الوليد (86-96هـ/705/715م) أن المسلمين يعدون أنفسهم ويجهزون حملة كبيرة لتوجيهها نحو العاصمة براً وبحراً، وأضافت الرواية كيف استعد

(31) الطبري: المصدر السابق، ج3، ص241.
(32) نفسه، ج3، ص238، ابن الأثير: المصدر السابق، ج3، ص493.
(33) Lewis, *op .cit*. p. 61.
(34) البلاذري: المصدر السابق، ص240.
(35) نفسه، ص241.
(36) Theophanes, *op .cit*. pp. 54,59.
(37) Ibid. p. 64.
(38) Ibid. p. 127.

الإمبراطور بتجهيز الأساطيل الحربية، وإنتاج سفن ذات صفين من المجاديف مزودة بقاذفات اللهب، وسفن عملاقة ذات ثلاث صفوف، كما قام بإصلاح أسوار المدينة البرية والبحرية على السواء، ووضع معدات رمى السهام والحجارة على بواباتها، ثم قام بتخزين كم هائل من المؤن في مخازن المدينة وقام بتأمين هذه المخازن، فعمل بذلك على تقوية المدينة بأقصى ما أتيح له من إمكانات، إلى جانب هذا قام الإمبراطور بمحاولة لإحباط ما أقدم المسلمون عليه من استعدادات لهذه الحملة في خطوة أكثر إيجابية ((فما أن علم بخروج حملة من الإسكندرية إلى فونيكس للحصول على خشب السرو حتى جهز سفناً سريعة من الأسطول وشحنها بقوات من ثيم الأبسيق وأمرهم بالتجمع في رودس ... وأعطيت لهم الأوامر بالتوجه إلى فونيكس لإحراق تلك الأخشاب وما يجدونه من معدات للعرب))[39].

كما يرجع أيضاً إلى سياسة التوطين التي انتهجها مع القبارصة والمردة*، وكذا السلاف، أن أصبح لديه على الأقل اثنا عشر ألفاً من المردة بعائلاتهم أدرجهم كمقاتلين في صفوف بحارته وجنده البحريين مكوناً منهم عدة أسطول ثيم الكارابيزيانى، كذلك نقل ثلاثين ألفاً من السلاف بعد أن أجلاهم عن الساحل الشمالي من بحر إيجه ثم قام بتوطينهم حول جزيرة قزيقوس، تلك التي كانت قد خربت بعد انسحاب المسلمين منها عقب محاولتهم الأولى لغزو القسطنطينية، وأقطعهم الأرض وأدرجهم في الجيش[40]، وأسهمت تلك الإجراءات في دعم القوة البحرية البيزنطية، يدل على ذلك استئناف نشاط الأسطول في عهده عندما أقدم على إنفاذ حملة بحرية للهجوم على مصر عام 709م، لإضعاف الأسطول المصري، وأسر خلالها أمير البحر خالد بن كيسان، وذلك في محاولة لإعاقة الأسطول المصري عن المشاركة في أي نشاط مرتقب مع أسطول الشام[41].

(39)Ibid. pp. 80-81.

* المردة: أو Mardaites كانوا من سكان المناطق الجبلية، الذين استوطنوا جبال لبنان منذ عهد طويل، وتراجعوا أمام الفتوحات الإسلامية إلى الشام ليستقروا على الحدود. ثم حاولت الإمبراطورية تنظيمهم واستغلالهم في إثارة المتاعب للمسلمين بتحريضهم على القيام بغارات على المناطق الإسلامية. وظل وجودهم في هذه المناطق سبباً في حماية آسيا الصغرى من تدخلات المسلمين حتى أن المصادر البيزنطية اعتبرتهم درعاً حديدياً للإمبراطورية. انظر: Theophanes, *op .cit*. p.62.

(40) Treadgold, *op. cit*. pp. 332-333, Ostrogorsky, *op .cit*. pp. 118-119.

(41) Brooks, E. W, "The Relations between Empire and Egypt from a new Arabic source", Byzantinische Zeitschrift 1913. pp. 381.

- **محاولة غزو القسطنطينية 98-99هـ/717-718م**

حظيت هذه المحاولة باهتمام كبير من جانب الرواة من الجانبين، وحفل ما أوردوه من تفصيلات بما دار من مواقف بين أهم الشخصيات التي لعبت دوراً بارزاً في أحداثها، أما فيما يتعلق بالحملة ذاتها من حيث خطوات سيرها، وحتى وصلت إلى القسطنطينية ومحاصرتها قرابة العام، وما جرى خلال ذلك من أحداث، ثم كيف أنهى هذا الحصار وعوامل إنهائه، فهذا ما لم تفصله بعض هذه الروايات.

كانت الرواية العربية أقل اهتماماً فيما يتعلق بهذه التفصيلات، واقتصر ما جاء بشأنها من معلومات على إشارة موجزة عند الطبري في أحداث عام 97هـ تذكر أنه ((كان فيه تجهيز سليمان بن عبد الملك (96-99هـ/715-717م) الجيوش إلى القسطنطينية))، وفي العام التالي ((كان توجيه سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة إلى القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه، فشتى بها وصاف))[42]، ولم يزد ابن الأثير على ما أورده الطبري[43]، أما اليعقوبي فقال: ((غزا في أيام سليمان سنة 96 مسلمة وشتى بنواحي الروم وعمر بن هبيرة في البحر فمخروا ما بين الخليج والقسطنطينية))[44].

أما الرواية البيزنطية فقد تتبعت خطوات الحملة حين ذكر ثيوفانيس عام 616-617م ((أنه بعد أن قضى مسلمة الشتاء في آسيا ... وصل إلى أبيدوس ونشر جيشاً كبيراً في أرجاء تراقيه وأقامه في مواجهة المدينة، ثم أرسل إلى الخليفة سليمان أن يمده بجيش كان قد تم تجهيزه، وفي 15 أغسطس ضرب مسلمة الحصار على المدينة، في الوقت ذاته كان يهاجم حصون وقلاع تراقيه، وقد أقام خلف السور البرى خندقاً أحاطه بسور من الأحجار، وفي أول سبتمبر وصل سليمان مع رجاله في سفن ما بين ناقلات ومقاتلات يبلغ عدتها ألف وثمانمائة سفينة وأرسوا بين مجناورا وكيكلوبيون))[45].

(42) الطبري: المصدر السابق، ج4، ص ص44-48.
(43) ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص ص27-28.
(44) اليعقوبي: المصدر السابق،ج2، ص43.
(45) Theophanes, *op. cit.* p. 88, Nikephorus, Historia Syndomus. Patrologia Graeca, T.100, p. 955.

ذكرت الرواية إذن وصول الحملة إلى أبيدوس عند مدخل المرمرة، وإن أغفلت هي الأخرى كيف تمكن مسلمة من عبور المضيق كما أغفلته المصادر العربية، ثم حددت أين اتخذت الحملة موقعها وما قامت به من إجراءات لتحصينه سواء من جهة العاصمة أم من جهة تراقيه، وأضافت أنه بعد خمسة عشر يوماً لحق به أسطول في عدة كبيرة، أرسى في المكان ذاته الذي رست فيه الحملة الإسلامية السابقة على القسطنطينية، حيث خبر المسلمون مزية هذا المكان وملاءمته لإقامة معسكرهم، كما وجد في متابعة ما ورد في الرواية بعد ذلك ما يخص هذا الأسطول وما قام به في هذه الحملة، فقد ذكر ثيوفانيس أنه بعد مضى يومين بدأ هبوب الرياح الجنوبية فغادرت السفن المكان وأبحرت متجاوزة المدينة، وعبر جزء منها إلى نواحي ايتروبيوس انثيميوس، بينما رست السفن الباقية في المنطقة بين جالاتا حتى كليديون[46]، وقد عمد الأسطول البيزنطي إلى الاكتفاء بمراقبة ما قد تسفر عنه تحركات الأسطول الإسلامي، ربما حتى تأتيه الفرصة، إذ لوحظ – كما صور ثيوفانيس ((كيف كانت حركة وحدات الأسطول الكبيرة بطيئة بسبب ثقل حمولتها خاصة تلك التي كانت في المؤخرة ... فقام الإمبراطور على الفور بإرسال سفينة مزودة بقاذفات اللهب ضد هذه الوحدات فأضرمت فيها النيران، بينما سارعت تلك التي أفلتت من النيران إلى الالتجاء إلى جزيرتي أوكسيا وجالاتا – وقد أراد الإمبراطور استثمار هذا النصر باستدراج تلك الفرقة التي كانت على مقربة من جالاتا لدخول القرن الذهبي– إذ قام بإنزال السلسلة ولكنهم فطنوا لنيته هذه في استدراجهم فلم يريدوا الاستمرار في جالاتا وأبحروا باتجاه خليج سوسينيوس)) [47].

أضافت رواية نقفور أن هذه الفرقة قضت الشتاء في موقعها هذا وكان شتاء هذا العام قاسياً[48].

تعليقاً على ما مر بالأسطول في تلك الفترة، يمكن أن يقال أنه طوال الوقت الذي اضطر فيه الأسطول إلى الاختباء عند البسفور كان معطلاً حتى عن أعمال المراقبة والحراسة وبالتالي حدث خلل في أدائه لمهمته في

(46) Theophanes, *op .cit*. p. 88.
(47) Ibid. pp. 88-89.
(48) Nikephorus, *op .cit*. p. 958.

الحصار[49]، يضاف إلى اضطراره للاختباء أيضاً تأثير الطقس السيئ على أدائه لمهمته، كما أشار نقفور، كذلك أضاف ثيوفانيس أن الجيش في تراقيا هو الآخر تعرض لخسائر فادحة بسبب هذا الشتاء[50]، مما جعله هو الآخر يتوقف عن أداء مهمته في مهاجمة أسوار المدينة، هنا يبرز سؤال هل انتهى بذلك دور الأسطول وبالتالي الدور الذي قامت به البحرية الإسلامية في هذه المحاولة ؟.

وفي محاولة للإجابة على هذا السؤال وجد أن المصادر العربية قد اهتمت بتصوير ما لاقته الحملة من عناء بحلول الشتاء، وذكر الطبري أنه لم يصلهم مدد فقال: ((ونزل الشتاء فلم يقدر يمدهم حتى هلك سليمان))[51]، في حين أغفل المؤرخون الباقون الإشارة إلى أي مدد تلقته الحملة، فيما عدا مؤرخ واحد هو ابن عبد الحكم، الذي ذكر وصول أسطولين أحدهما من إفريقية وسمى قائده بأبي بردة، بينما جعل شريح بن ميمون قائداً للأسطول الآخر وهو الأسطول القادم من مصر[52].

ويتفق ما ذكره ابن عبد الحكم مع ما جاء في الروايات البيزنطية عند كل من ثيوفانيس ونقفور بشأن هذين الأسطولين ومصدرهما، وإن اختلفت في أسمى قائدي الأسطولين، وأضافت أن ((أسطول مصر بقيادة ما يدعى سفيان كانت عدته أربعمائة سفينة ما بين ناقلات للمؤن وسفن حربية، في حين كان يزيد قائداً لأسطول إفريقية ومعه مائتان وستون سفينة محملة بالسلاح والمؤن))[53].

قد يفهم من هذا أن هذين الأسطولين، اللذان وصلا في ربيع العام الأول من الحصار، كانا للإمداد بالمؤن والسلاح فقط، وعليه يكون دور الأسطول في هذه الحملة قد انتهى منذ المرحلة الأولى، وذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه لم يكن لدى المسلمين خطة لهجوم مباشر بمجرد أن فشلوا في تنفيذ خطة الحصار البحري، وتضاعف

(49) Tsangadas, *op .cit*. p.288, note. 82.
(50) Theophanes, *op .cit*. p. 89.
(51) الطبري: المصدر السابق، ج4، ص49.
(52) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، تقديم وتحقيق: محمد صبيح، مكتبة مدبولي، ص86.
(53) Theophanes, *op .cit*., p. 85; Nikephorus, *op .cit*. p. 959.

عجزهم بفعل العوامل الجوية التي عملت ضدهم ولصالح البيزنطيين، الذين استطاعوا التزود بالمؤن عن طريق القوارب بينما منعت تلك العوامل الجيش الإسلامي في معسكره والأسطول في مينائه من مجرد الخروج للبحث عن المؤن[54].

لكن يبدو أن أسطولي الإمداد هذين كانا– من المواقع التي رسيا فيها – يستطيعان فعل شيء فأسطول سفيان مر بشواطئ بيثينا الأسيوية وعبر إلى الشاطئ الآخر [للبسفور] ثم رسا عند ميناء كالوس أجروس، بينما تبعه أسطول يزيد الذي رسا عند ساتيروس وبرياس وحتى ميناء كارتا ليمين[55]؛ الذي يبعد عن سواحل القسطنطينية بما يزيد عن ثلاثين ميلاً[56]، وكان بقاؤهما إذا ما نجحا في تأمين مواقعهما في هذه المواضع، وبالنظر إلى ما يمكن أن يضيفه هذا العدد الذي يمثله هذان الأسطولان اللذان وصلا في الربيع، حيث تتاح لهما فرصة التحرك، إذا ما انضما إلى ما بقى من قطع الأسطول الأول القابع أيضاً في سوسينيوس على البسفور، وذلك بعد أن يكون قد تجاوز محنة الشتاء القاسي، من شأنه أن يجعل استمرار مهمة التطويق أمراً ممكناً، لكن بقاءهما لم يطل في هذه المواقع حيث ذكر نقفور ((أن الأسطول المصري الذي آثر الاقتراب من المدينة، سهل على الإمبراطور أن يوجه إليه سفنه القاذفة للنيران فأتت على هذا الأسطول بعد أن استولت على ما فيه من أسلحة وغنائم ومؤن وعادت بها إلى الإمبراطور))[57].

أما ثيوفانيس فقد آثر أن يعزو القضاء عليهما إلى ((مصريين من الأسطولين تشاوروا فيما بينهم، واستقلوا قوارب خفيفة في الليل واقتربوا من شواطئ المدينة ودعوا للإمبراطور، الذي استعلم منهم عن مواقع هذين الأسطولين، فأرسل إليهما سفنه المزودة بقاذفات النيران، وبتوفيق من الرب ... أغرقت سفن الأعداء في موقعها، وعاد البيزنطيون بالفرح والنصر بعد أن استولوا على غنائم ومؤن من المسلمين))[58].

(54) Treadgold, *op. cit*. p. 347.
(55) Theophanes, *op .cit*. p. 89.
(56) Ibid. pp.89. note 170
(57) Nikephorus, *op .cit*. p. 959.
(58) Theophanes,*op.cit*. p. 89.

هذا التعبير عن النصر يشير إلى أن بقاء هذين الأسطولين في هذه المواقع كان يمثل خطراً كبيراً على البيزنطيين، إذ بقاء هذا الوضع يجعل مساحة التطويق تمتد من البسفور إلى الشاطئ الآسيوي للمرمرة[59].

إذا كان نجاح الإمبراطور في القضاء على هذين الأسطولين يعد من ناحية ضربة قاصمة قضت على أية فرصة لاستئناف الحصار البحري من قبل الأسطول الباقي بالإضافة إلى هذين الأسطولين، فإن فقدان هذين الأسطولين بما يحملان أيضاً من مؤن وعتاد كان من المفترض أن يزود بها الجيش البرى[60]، فإن حرمانه من هذا المدد من ناحية أخرى كان إيذاناً بفشل الحصار كلية[61].

وعندما عبر ثيوفانيس عقب القضاء على آخر مدد برى وصل عبر منافذ آسيا حتى نيقيه "ونيقوميدية" بقوله: ((أن الشاطئ الآخر [يقصد الشاطئ الآسيوي للمرمرة والبسفور] بعد أن استعاد الأمان، أصبح متاحاً لأعداد غفيرة من القوارب الصغيرة أن تخرج من المدينة التماساً للطعام بما في ذلك قوارب الصيد من الجزر وكذلك من المدينة بعد أن كانت قد توقفت عن ممارسته))[62]، كان هذا يعنى أن الحصار البحري انتهى عملياً عقب ما لحق بهذين الأسطولين، ثم بالقضاء على آخر تهديد بوصول مدد يمكن أن يصل إلى الشاطئ ويعمل على قطع الاتصال بين العاصمة وأقاليمها في آسيا الصغرى.

لوحظ توقف المصادر عن ذكر أي شيء يتعلق بالقوة البحرية عقب القضاء على أسطولي المدد، وبالتالي عقب ثيوفانيس بعد ذلك على انتهاء العمليات على الشاطئ الآسيوي للبسفور والمرمرة حيث كانت مهمة الأسطول، لكنه عاود فذكر – بعد انسحاب الجيش – كيف أن أسطول الحملة تعرض في رحلة العودة لعاصفة هوجاء شتت شمله وغرقت بعض سفنه عند بروكونيسوس وجزر أخرى والبعض الآخر عند أبوستروفوى ونواحي أخرى، وما بقى منه

(59) Tsangadas, *op.cit*. p. 144.
(60) Theophanes, *op .cit*. p. 89; Nikephorus, *op .cit*. p. 909.
(61) Tsangadas, *op .cit*. p. 145.
(62) Theophanes, *op .cit*. p. 90.

تعرض أثناء عبوره بحر إيجه لعاصفة أخرى جعلت مياه البحر تثور فأغرقت السفن بحمولتها، فلم ينج منها سوى عشر فقط، وقعت خمس منها في أيدي قواتنا بينما تمكنت الخمس الأخرى من العودة إلى سوريا لتشهد بقدرة الرب))[63].

لا ندرى من أين جاءت هذه السفن، إذ لم تشر المصادر العربية إلا إلى مدد برى وجهه الخليفة عمر بن عبد العزيز (99–101هـ/ 717–720م) إلى مسلمة ((خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم، وكان ما وجهه إليه من الخيل العتاق خمسمائة فرس))[64].

وكذلك لم تشر المصادر البيزنطية – بما في ذلك ثيوفانيس نفسه – إلى وصول مدد بحري إلى المسلمين ليصحبهم في رحلة العودة، إذن يبقى احتمال وحيد وهو أن تكون هذه السفن من فلول الأسطول الأول، الذي يحتمل أنه لم يتمكن من الانضمام إلى أسطولي المدد فأفلت من المصير الذي تعرضت إليه سفنهما، ثم تمكن من العودة عبر الساحل الآسيوي للمرمرة – حيث ذكر ثيوفانيس تعرضه لعاصفة عند جزره – أي أنه كان بعيداً عن مرمى سفن الأسطول البيزنطي.

وعلى الرغم مما كان لفشل هذه المحاولة من نتائج أولية منها اضطرار المسلمين إلى التراجع عن معظم ما تقدموا إليه من حدود في أسيا الصغرى، وعلى الرغم من حداثة خسائرهم إلا أنهم سرعان ما عادت حملاتهم بصورة مكثفة على كل من ثيم الأناضول وثيم الارمنياق[65].

لذلك استمرت خشية الإمبراطورية البيزنطية من أن يقوم الأسطول الإسلامي بأية نشاطات، فعملت جاهدة على منع أي نشاط لهذا الأسطول، فقامت بهجمة سريعة على اللاذقية على الساحل الشامي، ثم ركزت هجماتها على مراكز هذا الأسطول في مصر فقامت بهجمة على تنيس عام 720م[66]، ولكن هذا لم يمنع الأسطول الإسلامي من أن يقدم على مهاجمة قبرص عام 724م[67].

(63) Ibid. p. 91.

(64) الطبري: المصدر السابق، ج4، ص61.

(65) Treadgold, *op. cit*. p. 349.
(66) Brooks, The Relations. p. 386.
(67) Nikephorus, *op .cit*. p. 971.

ومع ذلك استمر خروج فرقة منه للإغارة بين الحين والآخر يقلق الإمبراطورية البيزنطية ويدعوها لمواجهته، لتظل بذلك مسألة النظر في سياستها البحرية، والمضي قدماً في تطوير نظامها البحري وقدراتها البحرية سواء الدفاعية أو الهجومية مطلباً ملحاً، إذ لوحظ غياب أي نشاط للأسطول البيزنطي قبل أن يصل الأسطول الإسلامي إلى مياه بحر مرمره، مما يعنى أن الوحدة البحرية المسؤولة عن شمال بحر إيجه ومضيق الدردنيل لم تؤد دورها، وقد يرجع أسباب هذا القصور إلى تورط وحدات البحرية البيزنطية في الصراع الذي دار على السلطة الذي سبق وصول المسلمين إلى القسطنطينية[68].

المحور الثاني: نظام البنود البحرية (الثيمات) ودوره في صد هجمات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية.

مثلما فرضت المواجهة مع الإمبراطورية البيزنطية على المسلمين تبنى سياسة بحرية اتضحت معالمها خلال مراحل تلك المواجهة، فإنها أوجدت كذلك للإمبراطورية من الظروف ما أظهر أن سياستها البحرية بتنظيمها المعروف قد سارت هي الأخرى حسبما تتطلبه مراحل تلك المواجهة، والمتتبع لتلك المراحل يستطيع أن يتبين إلى أي مدى استطاعت الإمبراطورية الاستمرار في العمل بسياستها البحرية المعروفة، ثم من خلال الظروف التي دفعتها إلى تغييرها يمكن التعرف على ماهية التغييرات التي طرأت على هيكل تلك السياسة بكل تنظيماتها نتيجة لتلك المواجهة، فعندما قررت الإمبراطورية المواجهة ووقف المسلمون موقف الدفاع كانت تستطيع تدبير أية قوة للقيام بهجوم ما أو إنفاذ حملة إلى أي مكان، وذلك اعتمادا على ما لديها من قوة بحرية موجودة في العاصمة أو من قواعدها البحرية، وقد يدعمها أسطولها التجاري إذا لزم الأمر، وعلى مثل هذه القوة ظلت الإمبراطورية تعتمد في تنفيذ سياستها البحرية، وكان بإمكانها الاستمرار في العمل بهذه السياسة طالما أنها تستطيع تحقيق الأهداف المطلوبة، لكن إسراع المسلمين بإنشاء أسطولهم وبدء نشاطه أثار قلق الإمبراطورية، حقيقة أن الإمبراطور قنسطانس حين أراد مواجهة هذا الأسطول استطاع

(68) حيث وجد أن بعض القيادات البحرية قد تورطت في الصراع الذي شهدته البلاد في تلك الفترة، انظر:
Theophanes, *op .cit*. p. 81; Nikephorus, *op .cit*. p. 955.

على عجل إعداد أسطول كبير وصف بأنه ((جمع لم يجتمع للروم مثله قط))[69]، ولكن عندما أصابته الهزيمة ودمر الأسطول، دفعه هذا الوضع إلى التفكير في إنشاء أسطول حربي قوى يكون تحت تصرفه ليس فقط لإرساله في الحملات البعيدة، بل ليقوم بمهمة الدفاع عن السواحل، التي ما لبثت أن أصبحت هدفا لنشاط الأسطول الإسلامي بمجرد بدء نشاطه، ذلك النشاط الذي صورته المصادر البيزنطية في الفترة من 648م إلى عام 654 م مهددا ممتلكات الإمبراطورية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، الأمر الذي استوجب الإسراع بتنفيذ هذه الخطوة .

ويبدو أن الإمبراطور قنسطانس قد شرع بالفعل في تنفيذ هذه الخطوة[70]، وسواء أتمها هو بنفسه أم تابعها ابنه قسطنطين الرابع، فقد أصبح هذا الأسطول – الذي عرف بأسطول التدخل–[71] نواة الأسطول الدائم الذي أصبحت تملكه الإمبراطورية لأول مرة[72].

ويتضح من مصادر متأخرة أن نصف هذا الأسطول تقريباً كان يحتفظ به في القاعدة الرئيسة في العاصمة، بينما كان النصف الثاني موزعاً بين قواعد البحر المتوسط والبحر الأسود، وكان أسطولاً متحركاً تحت تصرف الإمبراطور يوجهه إلى أي مكان يشاء[73].

وكان من الطبيعي لهذا الأسطول الحربي الدائم والمكون من نوعيات مختلفة من السفن أن يعتمد على جيش بحري دائم يتم تعبئته من الأقاليم البحرية للإمبراطورية وبالأخص تلك المشهورة بكفاءة جنودها، مثل سواحل آسيا الصغرى وبحر إيجه وغيرها، كما يتم تسليحه من قبل القسطنطينية التي يعتمد عليها هو والأسطول في تدبير نفقاته والبقاء عليه[74].

وقد أنشئت لهذا الأسطول قيادة بحريه عليا واحدة عرفت باسم قيادة الكارابيزيانى، وكان مقرها جزيرة ساموس، إذ يسمح هذا المكان بالحركة السريعة والسيطرة على القوات التي كان معظمها في بحر إيجه، وخاصة في ذلك الجزء

(69) الطبري: المصدر السابق، ح2، ص619

(70) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس، محمود يوسف زايد. القاهرة، 1950م، ص 184.

(71) Lewis & Runyan . *op. cit*. p.22.

(72) Ahrweiler. H. Byzance et la Mer, Paris, 1966. p.19.

(73) Lewis & Runyan ., *op. cit*. p. 22.

(74) Ahrweiler. *op. cit*. p.25.

من البحر المتوسط الممتد بين قبرص ورودس حيث يتركز نشاط الأسطول الإسلامي، كما كان أسطول العاصمة تحت قيادة قائدها الأعلى، الذي حمل لقب استراتيجوس، وكذلك القطع البحرية العاملة في القواعد الأخرى كافة[75]، ولتمكين تلك القيادة من أداء مهامها بالشكل المطلوب جاءت الخطوة الثانية من التغييرات، عندما قام الإمبراطور جستنيان الثاني بتقسيم تلك القيادة الكبيرة إلى قسمين يضم كل قسم ألف جندي أصبح مكان القسم الأول وسط شبه جزيرة البلقان ومقره في كورنثة واتخذ اسم ثيم هيلاس، بينما استمر الاستراتيجوس يحتفظ بجزر بحر إيجه، وكذلك كان تحت قيادته الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى وكان مقره في مدينه كيبرا– في إقليم بامفيليا– وكان هذا هو القسم الثاني الذي عرف باسم ثيم كيبرهايوت[76]، وفي محاولة لرفع كفاءة هذه البنود أسكن جستنيان الثاني اثني عشر ألفاً من المردة بعائلاتهم هناك، وتم إدراجهم في الخدمة جنوداً ومقاتلين دائمين في أسطول هذه البنود، ومن ثم لبت تلك الإجراءات من جانب جستنيان حاجة ملحه للإمبراطورية، إذ إمداد تلك البنود بهذا العدد من الجند بالإضافة إلى البحارة المدربين يعد دعماً لقوتها البحرية[77].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإمبراطورية استطاعت أن تستفيد من هذا النظام الدفاعي الجديد بتطبيق نظام الثيمات أو البنود على أقاليمها في جناحها الغربي، فعلى حين كان ما بقى من ممتلكاتها في كل من إيطاليا وأفريقيا يطلق عليهما اسم اكسرخيات، فان الأجزاء الباقية منها، بعد انتزاع كل من اللومبارد والمسلمين لأجزاء منها، أصبحت تلك الأجزاء الباقية بعد ذلك ثيمات أو بنوداً مثل ثيم سردانية وثيم صقليه، وينسب إلى طيبريوس الثاني إنشاء هذين البندين بأن ضم ما كان يتبع اكسرخيه أفريقيا أي سردانية وجزر البليار مكونا ثيم سردانية، الذي كان ظهوره عام 699م، أما ثيم صقليه فقد ظهر اسمه لأول مره عام 700م، وكان يضم ما بقى من اكسرخيه إيطاليا بالإضافة إلى صقليه وكالابريا[78]، ثم جاءت الإجراءات التي قام بها الإمبراطور ليو الثالث لتكون المرحلة النهائية من المسيرة التي

(75) Antoniades -Bibicou , H.,Etudes de l' Histoire maritime de Byzance-A propes du Theme des Earabisiens, Paris,1966, p. 84.
(76) Ostrogorsky, *op. cit*. p. 140.
(77) Ibid. p. 118.
(78) Treadgold, *op. cit*. p. 339.

خاضتها الإمبراطورية لتطوير تنظيماتها البحرية، وقد تلخصت في إنشاء قيادات بحرية متعددة مستقلة عن بعضها على أن تتبع جميعها القسطنطينية[79]، على أن يكون لكل قيادة من هذه القيادات أسطول تدخل مرتبط بالثيم البحري، الذي نشأ فيه، وقد عرفت بأساطيل الثيمات، لتكون مستقلة عن الأسطول الإمبراطوري القابع بالقسطنطينية[80]، غير أن السلطة في العاصمة تستطيع تكليف قائد الثيم وأسطوله بالقيام بأية عملية تراها سواء أكانت تقع في محيط الثيم الذي يقوده أم في أي مكان آخر، كما أنه في حالة اشتراك أسطول الثيم مع الأسطول الإمبراطوري في أية عملية تكون القيادة لقائد الأسطول الإمبراطوري[81].

وفق تلك الإجراءات أصبحت هذه القيادات المتعددة تتحمل مسؤولية الدفاع عن سواحلها وتأمينها، وقد أسهمت تلك الأساطيل في الصراع ضد المسلمين في القرن الثامن، على حين اختص الأسطول الإمبراطوري بمهمة القيام بالحملات البعيدة، وهكذا أصبح أسطولاً هجومياً تسعى الإمبراطورية عن طريقه لاستعادة سيادتها البحرية[82].

هكذا اتضح أن هذه التغييرات كانت بمثابة إعادة هيكلة حقيقية للسياسة البحرية البيزنطية وتنظيماتها من جيش وأسطول، وأنها في كل مرحله من المراحل التي أجريت فيها كانت رد فعل ونتيجة لنشاط البحرية الإسلامية، حيث كانت الإمبراطورية في كل مرحله تجد نفسها أمام عدو ناهض ينازعها السيادة البحرية على البحر المتوسط.

الخاتمة والنتائج

- نجاح المسلمين في نقل الصراع بينهم وبين البيزنطيين إلى داخل أراضي الدولة البيزنطية.

(79) ربما أقدم على هذه الخطوة على اثر تلك الثورة التي قامت بها عناصر ثيم هيلاس وجزر الكيكلاديس ضده بسبب ما أثارته حركته الدينية من غضب، خاصة لدى سكان الجزر المرتبطين بعبادة الايقونات؛ فأقدمت هذه العناصر على الثورة وتقدمت نحو العاصمة ودارت أمام أسوار العاصمة معركة بحرية في 18 إبريل عام 727م. أنظر: Theophanes, *op.cit.*, p. 97.

(80) Guilland , R.,"Etudes de Titulature et de prosopographie Byzantines , les Chefs de la marine byzantine, drongaire de la flotte", B.Z., vol. 44, 195, pp. 212-213.

(81) Ibid. p. 214.

(82) Ahrweiler. *op. cit*. pp.31-34.

- قدرة المسلمين على الاستمرار في العمليات وتكرارها على مدى سبع سنوات، في مقابل قدرة البيزنطيين على التصدي لهذه العمليات وعدم تمكينها من إحراز نتائج.
- ثبت أن تحركات المسلمين سارت وفق خطة محددة عهد فيها للأسطول القيام بدور رئيس في تطويق وإغلاق المضايق، كانت خطورتها تكمن في أن عملياتها كانت على نطاق واسع لتشمل معظم المنافذ حول العاصمة ومن ثم اكتسبت صفة حصار.
- على الرغم من فشل محاولات الأسطول الإسلامي في تحقيق مهمته في السيطرة على القسطنطينية، مما اضطر المسلمون إلى التراجع عن معظم ما سيطروا عليه من حدود في أسيا الصغرى، لكنها أثبتت في الوقت ذاته قدرة الأسطول الإسلامي على الوصول إلى المياه حول العاصمة.
- تبين أنه لم يكن هناك قصور في توزيع أجزاء الأسطول، كما أن تحركات الأسطول من خلال قيادته اتسمت بالتعقل وعدم التهور لتفادى الخسائر.
- قيام الأسطول البيزنطي حول العاصمة بدور فعال في إحباط محاولة المسلمين للسيطرة عليها.
- التزمت الإمبراطورية البيزنطية موقف الدفاع خلال معظم مراحل هذه المواجهة.
- دفعت تحركات الأسطول الإسلامي ونشاطاته الإمبراطورية إلى تطوير نظامها البحري فحرصت على الإبقاء على أسطول دائم مسؤول عن أعمال عسكرية بحته– لأول مرة – كما اضطرت إلى الاستعانة بجيش بحري منظم تم اختيار عدته من عناصر بحرية ذات خبرة في القتال وخوض البحر.
- اتضح أن مسيرة التغييرات التي طرأت على القوة البحرية البيزنطية كانت رد فعل ونتيجة لنشاط البحرية الإسلامية، حتى مكنت الإمبراطورية في النهاية من استعادة قوتها في البحر المتوسط.

- وأخيراً أتضح أن رد المسلمين عن أسوار القسطنطينية لم يكن ليوقف حالة الحرب أو العداء المستمر بين الطرفين، بل ولم تكن الآثار الفورية التي نتجت عن فشل محاولة المسلمين في الوصول إليها لتنهي مخاوف البيزنطيين، حتى بعد أن اضطروا إلى التراجع عن الجزر التي أوصلتهم إلى القسطنطينية.

التوصيات:-

- توجيه الباحثين إلى دراسة كل مرحلة من مراحل هذه الفترة على حدة بهدف الغوص في تفاصيل كل مرحلة من مراحلها، مع ضرورة الاستعانة بالمصادر الأجنبية للوقوف على وجهات النظر المختلفة.

قائمة المصادر والمراجع:-

أ- المصادر:-

1- ابن الأثير: عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت 630/ 1233م)، الكامل في التاريخ، 13 جزء، دار صادر، دار بيروت، بيروت، 1965م.

2- البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت 279هـ/892م) فتوح البلدان، ط1،شرح وتعليق عبد الأمير مهنا، دار اقرأ، بيروت، 1992م.

3- الطبري: أبو جعفر محمد بن جير (ت 310هـ/923م)، تاريخ الأمم والملوك، الطبعة الثالثة، 6 أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

4- ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الحكم (ت 257هـ/781م)، فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، تقديم وتحقيق: محمد صبيح، مكتبة مدبولي (د . ت).

5- اليعقوبي: أبو العباس أحمد (ت 292هـ/904م)، تاريخ اليعقوبي، جزآن، النجف، 1358هـ.

ب- المراجع :-

1- إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون-البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية-، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1953م.

2- نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس، محمود يوسف زايد. القاهرة، 1950م.

ج- المراجع الأجنبية:-

1- Ahrweiler. H. Byzance et la Mer, Paris, 1966.

2- Antoniades -Bibicou , H.,Etudes de l' Histoire maritime de Byzance-A propes du Theme des Earabisiens, Paris,1966.

3- Brooks, E. W, "The Relations between Empire and Egypt from a new Arabic source", Byzantinische Zeitschrift 1913.

4- Guilland , R, "Etudes de Titulature et de prosopographie Byzantines , les Chefs de la marine byzantine, drongaire de la flotte", B.Z., vol. 44, 195.

5- Lewis, A., Naval Power and Trade in the Mediterranean A. D. 500-1100, Princeton, 195.

6- Nikephorus, Historia Syndomus. Patrologia Graeca, T.100.

7- Ostrogorsky, G., The Byzantine Empire in the world of the seventh century", Dumbarton Oaks papers, vol. 13, 1959.

8- Theophanes, The Chronicle of Theophanes, trans. by Harry Turtledove, Philadelphia, 1982.

9- Treadgold ,w, A History of the Byzantine state & society, California, 1997.

10- Tsangadas, B. The Fortifications and Defense of Constantinople, New York,1980.